# تعدد الألسن في الأندلس

الطالبة الباحثة فاطمة الزهرة التزروتي
تكوين التراث الكلامي والأصولي والصوفي في الغرب الإسلامي
كلية أصول الدين، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان
المغرب

كانت أرض الأندلس قبل الفتح الإسلامي مجمعا لعناصر جنسية متنوعة من البسك و الإغريق و القوط وغيرهم، ومع دخول الفاتحين بقيادة طارق بن زياد ( ت 101 هـ) في رمضان سنة 92 هـ أضحت شبه الجزيرة الإيبيرية أرضا إسلامية، و ظل المجتمع الأندلسي محافظا على تنوع عناصره بعد الفتح الإسلامي خاصة مع توافد العرب من المشرق و البربر من شمال إفريقيا. ورغم هذا التنوع البشري في الأندلس فقد كانت الوحدة و التعايش ميزة هذا المجتمع الذي أعطى المثل في حسن التالف و التعايش السلمي "وقد بلغ تسامح المسلمين مع المسيحيين و اليهود الذين يعيشون في ظل الحكومة الأندلسية درجة تحمل على الإعجاب، فقد كان الأكفاء منهم موضع إجلال الحكام ومحل ثقة الأمراء والخلفاء" [1].

أصبحت اللغة العربية في ظل الحكم الإسلامي في الأندلس اللغة الرسمية و ظلت دائما في المرتبة الأولى بين اللغات، و يؤكد الدكتور هيكل هذا الأمر بقوله: "على أنه يجب أن نقرر أن العربية الفصحى كانت دائما في المحل الأول، فكانت لغة العلم و الأدب العالي، كما كانت لغة الرسميات و كل ما هو جاد من أمور الدولة، أما العامية العربية فكانت تلي تلك الفصحى في المنزلة[2]"، وتعود غلبة اللغة العربية في الأندلس إلى أنها لغة الفاتحين. فقد شكل توافد العرب بأعداد هائلة عليها إلى انتشارها في شبه الجزيرة إلى جانب أنها كانت اللغة الرسمية للدولة، فكان بذالك من الطبيعي أن يقبل سكان الأندلس على تعلمها، ثم إن أرض الأندلس كانت أرض حضارة و منارة علمية بامتياز، و اللغة العربية كانت لغة هذه الحضارة ، فالطلبة و المتعطشين لهذه العلوم القادمين من مختلف البلدان كانوا ملزمين إلى حد ما بدراسة هذه اللغة قصد التمكن من الاطلاع على التراث العربي الإسلامي، و لا أدل على مدى انتشار اللغة العربية في العصور الوسطى في الأندلس من تلك الحسرة التي أطلقها القس الفرو القرطبي إذ يقول " يا للحسرة !! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب و آدابها، و يؤمنون بها و يقبلون عليها، و هم ينفقون أموالا طائلة في جميع كتبها، و يفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديرة بالإعجاب[3]" .

وأمام هذا الزحف السريع للغة العربية في الجزيرة وانكباب النصارى على تعلمها قام أحد قساوسة أشبيلية بترجمة التوراة إلى اللغة العربية ليقرأها تلاميذه كما ترجم غيره من القساوسة كتب الكنيسة إليها، وجاءت هذه الخطوة كمحاولة من جهة للحفاظ على الدين المسيحي بين أبناء النصارى خاصة بعد تفشي ظاهرة الانبهار بالحضارة العربية الإسلامية وميل جلهم للاطلاع عليها والنفور من المد الكنسي بل والتأثر بالدين الإسلامي واعتناقه فبادرت

مجموعة كبيرة من النصارى إلى اعتناق الدين الإسلامي وسمي الجيل الأول من هذه المجموعة (المسالمة) ثم تطور الاسم بعد ذلك حتى استقر في النهاية تحت عنوان المولدون ، و من جهة أخرى كان استخدام اللغة العربية من قبل الرهبان و سيلة لنشر الدين المسيحي بين المسلمين ثم بدأ لرجال الدين من الإسبان أن يسعوا في نشر دينهم بين المسلمين فأخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان و يجادلوا مخاليفهم بالبرهان فوضع أحد الدومنيكيين أول معجم عربي باللغة الاسبانية سنة 1230م[4]. فرجال الدين المسيحيين بذالك قاموا بحملة مناهضة للثقافة العربية بعد انكباب أبناء النصارى عليها وتعربهم لغة وثقافة، ويبدو أن مسيرة التعريب هذه أثرت تأثيراً بالغاً في صفوف النصارى مما زاد في خوف رجال الدين المسيحيين بالأندلس على مستقبل لغتهم اللاتينية بعد أن وجدوا أن المستعربين قد تعمقوا في دراسة العلوم العربية ونبغ عدد منهم في هذه المجالات بل وتقلدوا مناصب مرموقة في الدولة الإسلامية. لقد استطاعت اللغة العربية أن تستوعب الثقافات والعلوم منذ الفتح الإسلامي في للأندلس، فمظاهر التعريب شملت شتى المجالات وأصبحت اللغة العربية حينذاك ولقرون طويلة لغة العلم والمعرفة بل ولغة العالم المتحضّر.

إن طبيعة الحياة الأندلسية اقتضت كما أسلفنا الملائمة بين مختلف الأجناس، لذالك فاللغة العربية و إن كانت لها الغلبة و الترسيم في ارض الأندلس إلا أنها لم تكن وحدها على لسان تلك البلاد، فالحرية الفكرية و الدينية التي ميزت البيئة الأندلسية ساهمت إلى حد بعيد في تفاعل اللغات و اللهجات المختلفة دون أي مناحرة تحيز، فاللغة العبرية كانت واحدة من هذه اللغات المستعملة في الأندلس رغم أن اليهود كانوا متمكنين من اللغة العربية، غير أنهم كانوا يستعملونها في طقوسهم الدينية. و لعل من أهم الأسباب التي أدت إلى تعلم اليهود للغة العربية هو إدراكهم الكامل أنه لا سبيل أمامهم إذا ما أرادوا تقلد المناصب العليا في الدولة العربية الأندلسية و التقرب من حكامها إلا بتعلم اللغة العربية و إتقانها، و قد مكنهم جو التعايش و الحرية الفكرية التي وفرها الحكم الإسلامي من تمكن الطلاب اليهود في الأندلس من الدراسة إلى جانب المسلمين و حتى النصارى " لقد نعم الطلاب اليهود في الأندلس بخير كبير عندما تركوا يتتلمذون على أيدي العلماء والأساتذة المسلمين الذين ذاع صيتهم ... [5]".

وقد مكن اليهود تعلم اللغة العربية بل و إتقانها من تقلد مناصب مهمة في الدولة إلى جانب دورهم المحوري في الترجمة من العربية إلى العبرية وإلى اللاتينية بحكم إتقانهم الجيد للغة الضاد و اطلاعهم العميق للتراث العربي الإسلامي، هذا الأخير الذي ساعدهم على الإبداع و التأليف في الكثير من العلوم، و قد كانت العديد من مؤلفاتهم توضع باللغة العربية إلى جانب اللغة العبرية ويذكر الدكتور شحلان بأن اليهود "كان لهم إسهام مهم في كل دقائق الحياة العامة والخاصة وفي كل مرادف الحياة[6]"، وتجدر الإشارة إلى أن رغم تآليف يهود الأندلس باللغة العبرية إلا أنهم وجدوا أن لغتهم مقيدة ومحصورة في بني قومهم لذالك هموا بنقل كتبهم من اللغة العبرية إلى اللغة العربية قصد حشد أكبر عدد من القراء، لذالك فالتراث اليهودي الأندلسي يعد جزءا مهما من التراث الفكري والحضاري الأندلسي ولخير دليل هو ذكر صاحب المغرب لسبعة من شعراء يهود الأندلس في كتابه ويقول شوقي ضيف في

هذا الصدد " فإن اليهود الذين كانوا يعيشون بإسبانيا منذ قرون طويلة تعربت –في ظننا– كثرتهم حتى لنجد كتب التراجم الأدبية الاندلسية تترجم لنفر منهم بين كتاب الأندلس و شعراءها ز موسيقييها ووشاحيها[7]".

و قد أثرت العلوم العربية إلى حد كبير في التآليف اليهودية التي كانت بالعبرية كيهوذا اللاوي ( ت تقريبا 536 هـ ) الذي كان يمزج في شعره بين اللغة العبرية و اللهجة العربية الأندلسية، و قد طرأ على الشعر العبري في الأندلس تغيرات كثيرة منها تنظيم الشعر العبري على قانون العروض و بأسلوب الشعر العربي، كما استهوى بعضهم وزن البحور العربية مما أدى إلى تعرضهم للنقد من قبل شعراء بني جلدتهم كيهودا الحريزي ( ت622 هـ) الذي انتقد في كتابه الشهير "تحكموني" هذا الوضع قائلا" إن بقي شعبنا، بعد جلائهم عن أرض كنعان، قد قطن الكثيرون منهم بني يعرب في أوطانهم، وألقوا التحدث بلغتهم والتفكير بتفكيرهم، وبامتزاجهم بهم تعلموا منهم صناعة الشعر"[8] ، و قد تنوعت التآليف اليهودية العبرية في الأندلس و إن كانت كفة الآداب أكثر ترجيحا.

ففي علم اللغة بعد مناجيم بن ساروق الطرطوشي ( ت 349 هـ) أول عالم لغوي يهودي ظهر في الأندلس وهو من ألمع شعراء اليهود في عصره و من أهم أعماله المعجم العبري ' محبريت ' الذي يعد أول معجم لغوي في اللغة العبرية و يغطي جميع مفردات الكتاب المقدس و هو على طريقة نحاة العرب، و قد كان لهذا المعجم أثر كبير في أوربا على اليهود و شكل هذا العمل نقطة انطلاق و الازدهار النحوي العبري بعد ذالك خاصة مع تلامذة مناجيم بن ساروق من أمثال أبو زكريا بن داود المشهور بيهودا بن جوج المتوفى في العقد الأول من القرن الخامس الهجري و أبو الوليد مروان بن جناح ( ت 447 هـ ) صاحب كتاب ' اللمع' الشهير و هو كتاب علمي جامع للنحو العبري و الذي يظهر فيه التأثير القوي للنحو العربي فيه إلى حد كبير خاصة وأن بن جناح كان يتقن اللغة العربية و على اطلاع و معرفة عميقة بالآداب العربية. يقول ابن جناح في مقدمة كتابه السالف الذكر " ومالم أجد عليه شاهدا مما ذكرته ووجدت الشاهد عليه من اللسان العربي لم أتحرج من الاستشهاد بواضحه و لم أتحرج من الاستدلال بظاهرة كما يتحرج من ضعف علمه و قل تمييزه من أهل زماننا لا سيما من استشعر منهم التقشف و ارتدى بالتدين مع قلة التحصيل لحقائق الأمور، و قد رأيت سعديا يترجم اللفظة الغريبة بما يجانسها من اللغة العربية"[9]، وخلال القرن السادس الهجري عرف الأدب العبري في الأندلس ظهور فن المقامات على يد سليمان بن صقبل (لا ندري متى توفي) و الذي لم يخلوا بدوره من مد التأثير الأدبي العربي ، و قد اشتهر هذا الفن مع يهوذا بن سليمان الحريزي (ت 622 هـ).

وفي مجال الدراسات اليهودية التلمودية، فقد كان الاهتمام بها متواضعا بالمقارنة مع باقي العلوم خاصة في القرون الأولى من الحكم الإسلامي في الأندلس، ومن الأسماء المرموقة في هاته الدراسات موسى بن ميمون ( ت 601 هـ) الذي قال عنه ابن أبي اصيبعة "عالم بسنن اليهود، ويعد من أحبارهم"[10]. وعموما فالفكر اليهودي في الأندلس استطاع أن يضع بصمته في الساحة الفكرية في الأندلس، الا أن الملاحظة البارزة هو صفة التأثير الفكري

الإسلامي في جل أقطابه و الذي يرجع بالدرجة الأولى الى تمكن غالبية يهود الاندلس من اللغة العربية و التي كانت بمثابة مفتاح للاطلاع على التراث العربي الإسلامي مباشرة من مصادره الأصلية كالفيلسوف اليهودي سلمون بن يهوذا بن جيرول ( ت تقريبا 450 هـ) حيث يعد من أوائل فلاسفة اليهود في الاندلس الذي مكنه اطلاعه المكثف على كتب فلاسفة العرب باللغة العربية من أن يصبح من الفلاسفة المرموقين. فاللغة العربية كانت مسيطرة إلى حد كبير في التوجه الفكري اليهودي في الأندلس وعندما نقول اللغة العربية فإننا نقصد أيضا الحضارة العربية باعتبار أن اللغة هي مرآة لثقافتها وأن اللغة والفكر هما في اتصال دائم، فاللغة هي تجسيد لأفكار أمة معينة ووعاء فكري وحضاري لها، فالثقافة اليهودية في الأندلس بذالك كانت تحت تأثير الفكر العربي الإسلامي الى حد كبير. ولا ننسى أيضا الدور المحوري والبارز الذي قام به اليهود في الأندلس في ترجمة العلوم الإسلامية والنصوص اليونانية التي ترجمت بالعربية حيث ساهموا بدالك في نشر العلوم العربية عبر نقلها من اللغة العربية الى اللغة العبرية وإلى اللغة اللاتينية.

وقد كانت في الاندلس لغة أخرى وهي المتفرعة عن اللغة اللاتينية والمعروفة بالرومانسية Romance بحكم أن سكان الاندلس لم يكونوا يعرفون اللغة العربية قبل الفتح الإسلامي. إن اللغة الرومانسية عبارة عنن لغة متطورة أو منبثقة من اللغة اللاتينية ومزوجة باللغة العربية، وهي لهجة عامية متفرعة عن اللغة اللاتينية دخلت الجزيرة الايبيرية مع الرومان وتطورت بعد ذالك، وهي في الأصل خليط من الرومانية والايبيرية، أطلق عليها العرب في البداية العجمية أو عجمية أهل الأندلس ولما زادت معرفتهم بها سموها اللطينية وقد تداول هذه اللغة في البداية المستعربين الذين ظلوا تحت الحكم الإسلامي ثم انتشرت بعد ذالك بين أرجاء الأندلسيين بفضل كثرة الزيجات العربية الاسبانية والتي ولدت أجيالا تتكلم اللغة الرومانسة، وقد ذكرت مصادر تاريخية هذا المعطى كابن حزم ( ت456 هـ) في كتابه جمهرة أنساب العرب، فحين حديثه عن فروع المسلمين المسمين بني بلي قال عنهم " لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط، نساؤهم و رجالهم"[11]، وقد مدتها اللغة العربية بمفردات كثيرة بحكم أن الطابع العربي الاسلامي هو الغالب والرسمي على المجتمع، إلى جانب قانون الصراع اللغوي الذي يقضي بأن تتأثر اللغة المغلوبة ب اللغة الغالبة، وكنتيجة لهذا الاحتكاك اللغوي عرفت بعض الأصوات العربية نوعا من التحريف على ألسنة الناطقين بها من غير العرب لعدم وجودها في لغتهم الأم.

ولعل المتتبع للآداب الاندلسي سيدرك بسهولة تداول هذه اللغة خاصة في الشعر الشعبي المتفرع الى الموشحات والأزجال. والموشحة " منظومة غنائية في لا تسيير موسيقاها على المنهج التقليدي، الملتزم لوحدة الملتزم لوحدة الوزن ورتابة القافية، وإنما تعتمد على منهج تجديدي متحرر نوعاً؛ بحيث يتغير الوزن وتتعدد ولكن مع التزام التقابل في الأجزاء القافية، المتماثلة"[12].

وقد ظهرت الموشحات في أواخر القرن الثالث الهجري وذكر صاحب الذخيرة ان محمد بن محمود هو مخترعها كشعر شعبي جاء نتاج لامتزاج العنصر العربي باللاتيني ومرآة لأحوال الاندلسيين، فالموشحات كانت رمزا لتعدد وتعايش اللغات في الاندلس، ثم إن الموشحة كانت ثنائية لغوية حيث كانت تكتب باللغة العربية في فقراتها

وتختم بالعامية الرومانسية في خرجتها. وقد طرأ على الموشحات تطورات عديدة من أهمها الفرع الذي انبثقت عنها في القرن الخامس الهجري وفي عهد الطوائف وهو الزجل الذي يختلف عن الأصل بكونه يكتب جله باللغة العامية.

طويت آخر صفحات الحكم الإسلامي في الأندلس بسقوط غرناطة سنة 897 هـ ودخل المسلمين المتبقين هناك في صراعات مريرة تجلت في محاكم التفتيش التي كانت تضغط عليهم للتخلي عن دينهم الإسلام أو الطرد من خارج الجزيرة، كما تم الحجز على استعمال اللغة العربية في كل المناسبات الرسمية وغيرها من قبل ملك إسبانيا فيليب الثاني، وتم تجريم استخدام العربية من قبل الملك فيليب الثاني سنة 1556 م. ومع تنامي هذه الضغوطات لجأ المسلمين المتبقين في الأندلس (الموريسكيون) إلى استعمال لغة الأخميادو بحيث أصبحوا يكتبون القشتالية بأحرف كمحاولة منهم لممارسة الإسلام خفية، فاستمروا في الحفاظ على حروف الهجاء وتدوين معارفهم الدينية والعلمية، وقد تطورت هذه اللغة الى أدب الأخميادو بعد ذالك.

**ملخص**

إن المجتمع الأندلسي كان مجتمعا متعدد الالسن والثقافات وقد ساعد جو التسامح الذي ظل طيلة عصور الحكم الإسلامي في تعايش مختلف الأجناس بكل حمولتهم الثقافية بما فيها اللغات، ورغم سيادة اللغة العربية بين أرجاء الأراضي الأندلسية وتأثيرها في باقي اللغات واللهجات بحكم الاحتكاك اللغوي وظاهرة التأثير والتأثر، فذالك لم يمنع من وجود و تعايش لغات أخرى ليس فقط في المجال التداولي اليومي بل و في المؤلفات العلمية و المعرفية المتنوعة، فالإرث العلمي الذي خلفته الحضارة الأندلسية لم يكن من إنتاج المسلمين فقط بل كانت هناك نسبة و إن كانت متواضعة لأجناس أخرى غير العرب ساهمت في إثراء هذا الزخم المعرفي كاليهود مثلا، الذين قدموا انتاجاتهم الثقافية خاصة في الأدب باللغة العربية و العبرية.

Andalusian society was a multi-lingual and multi-cultural society. This atmosphere of tolerance that remained throughout the eras of Islamic rule helped in the coexistence of different races with all their cultural load, including languages. Despite the dominance of the Arabic language throughout the Andalusian lands and its influence on the rest of the languages and dialects by virtue of linguistic friction and the phenomenon of being affected and influence, this did not prevent the existence and coexistence of other languages, not only in the daily life sphere which means communication, but also in various scientific and cognitive literature. Thus, the scientific legacy which left by the Andalusian civilization was not only produced by Muslims, but there was a percentage- modest one- of other races Non - Arabs who contributed to enrich this cognitive momentum, such as the Jews who presented their cultural productions, especially in literature in Arabic and Hebrew languages.

**الهوامش:**

[1] الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، هيكل احمد مقصود، الطبعة العاشرة، دار المعارف القاهرة 1986، ص 39

[2] نفس المرجع، ص 13

[3] تاريخ الفكر الأندلسي، انخل جونثالت بالنثيا، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 543

[4] غابر الأندلس وحاضرها، محمد كرد علي، المكتبة الأهلية، مصر، 1923، ص 154

[5] اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، خالد يونس عبد العزيز الخالدي، دار الأرقم، ص 392

[6] التراث العبري اليهودي في المغرب الإسلامي، احمد شحلان، منشورات وزارة الأوقاف، 2006، ص 45

[7] عصر الدول والإمارات، شوقي ضيف، دار المعارف السلسة، ص 133

[8] دروس في اللغة العبرية، ربحي كمال، دار العلم للملايين، بيروت 1963م، ص 5

[9] اللمع، أبو الوليد بن جناح القرطبي، تقديم احمد شحلان، آفاق، ص 7

[10] عيون الانباء في طبقات الاطباء، ابن ابي اصيبعة، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 583

[11] جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف مصر، ص 145

[12] الأدب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، احمد عبد المقصود هيكل، ص 139